

تاريخ القبول: 2023/02/03

تاريخ الإرسال: 2022/10/27

تاريخ النشر: 2023/06/03

المركز والهامش في أدب الطفل

The center and the periphery In children's literature

د. حبيبة مسعودي

جامعة جيجل (الجزائر) ؛ messaoudihabiba27@gmail.com

المخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة موضوع أدب المركز و الهامش لأهميته في العملية الإبداعية والممارسة النقدية، وسيكون التركيز على خطابية البناء من كونها خطابية إلى رؤية التفاعلات من خلال انعكاسات النسيج التركيبي وتظاهرات الصور الدلالية في سياق ديناميكي، ولا سيما في أدب الطفل، لما يحمله من مشاهد إبداعية ثقافية تتميز بطبيعة خاصة. ومن هذا المنطلق تم التوصل إلى أن أدب المركز والهامش موجود فكري يظل في حاجة إلى تفكيك شفراته ولا سيما في دراسة أدب الطفل الذي يحتاج إلى تكريس الجهود لإخراجه من شرقة التهميش.

كما نحاول من خلال كل هذا الوقوف عند صورة هذا الأدب وتجلياته في ظل الثقافات المهيمنة، ووجهات النظر المختلفة، منطلقين من الأسئلة التالية: ماذا عن أدب المركز والهامش؟ أيهما أسبق؟ هل المركز شرط لوجود الهامش أم لا؟ أيهما حامل للآخر؟، ثم ماذا عن أدب الطفل؟ هل هو حقا أدب مهمش؟ وعلى أي أساس كان التهميش؛ هل انطلاقا من التمثلات المعرفية أم الوجود التشكيلي للكتابة الموجهة له في حد ذاتها؟ وماذا عن كُتّابه؟.

الكلمات المفتاحية: المركز ، الهامش، أدب الطفل، النص الأدبي، الإبداع.

Abstract:

This study seeks to reveal the deep face of the relation between the center and the periphery (according to Foucault's model) as practiced in the literary critical field. even on the constructive level or on the semantic one. And the culminant point of this study is aiming as an objective the manifestation of this sub-mentioned couple in the field of childrens' literature which is a very particular kind of writing.

The other aim of our work is to explore rather than demonstrate the complexity of the action of all the elements of the couple on our consciousness, our ideology and the construction of our mental perspectives ; especially in the global context of globalisation. This state of things leads to the following questions : how are center and periphery manifested in this literature ? Which is preminent ? and why is it so ? What are the correlations between them ?

Key words: The center, the periphery, children's literature, literary text, creativity

د. حبيبة مسعودي، MESSAOUDIHABIBA27@GMAIL.COM

1. مقدمة:

من الواضح أن ما كتب حول أدب الهامش والمركز له حاضره المشهود، فقد كانت له تقلباته واهتزازاته إلا أنه يحكمه الانبثاء والاتصال والتشاكل، محتضنا بذلك الفضاء التفاعلي المستلهم لفلسفة خاصة تعكس آليات التعبير، وتعمل على تشخيص الكينونة وتوسيع المسارات وفق علاقة وجودية تنسج صورها في سيادة خطابية.

ولا تقتصر أهمية اكتشاف تلك المسارات على وصف واقع أدب الهامش والمركز؛ بل إنها تتعدى ذلك إلى محاولة الوقوف على إمكانات الوصول إلى ملحمة الحدود التي تحكم خطابية البناء، ومعاينة نسيج التفاعلات .

وانطلاقاً من هذا المعطى الموقفي نلاحظ أنه من الضروري الوقوف عند التحديد المفهوماتي لكل من أدب المركز / وأدب الهامش:

أولاً: ثنائية المركز والهامش: رصيد المفاهيم ومجالات التجاوب: من المفيد للباحث وهو يتفاعل مع أطراف هذه الثنائية (الهامش/المركز) أن يتفاعل مع حدودها الدلالية ويستوعب حقائقها:

ما إن نلتفط بمصطلح المركز إلا ويتبادر إلى الأذهان شكل من الأشكال الهندسية، ولتكن الدائرة التي لها مركز ثابت يسهم في تشكيل ذاك الشكل الهندسي الناتج من مجموعة معينة من النقاط، تتمركز بدورها على مسافة ثابتة من النقطة الأصل؛ نقطة المركز.

ولو أردنا أن نخصص الحديث عن أدب المركز في الحقل الأدبي، وجدناه يحمل دلالات عديدة منذ الأزل، إلا أنها أخذت الدلالة الضمنية، إليك مثلاً المكانة التي يتمتع بها الشاعر وسط قبيلته ألم ينظر إليه على أنه يملك مكانة متميزة؟ إنه من شأنه أن يرفع قيمة قبيلته أو يحط من شأنها، فظهور شاعر في قبيلة ما يعد بزوغ فجر جديد لها كونه يمثل فارساً مغواراً يدافع عن قبيلته بسلاح الكلمة، ومن ثم يكون نظمه مركزاً يستقبل باهتمام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن «الحديث عن المركز يحيل إلى ثقافة مهيمنة ، تزكي من نشاء وتقصي من نشاء، ترسم حدود وعوالم الهامش ولا تبيح له النقد والاختلاف، تنتج الخطاب، وتصنع الثقافة وتفرض نموذجاً لا يحق لغيرها التصرف فيه»¹

وفي ضوء هذا المنظور يتضح لنا أن المركز هو الوجود المهيمن والتموقع في حمى المعرفة والكتابة، حاضر في كل مكان، حامل لوجهات نظر مختلفة تسودها احترام تلك الوجهات بعد رصد كينونة السلطة العاكسة لوجوده والرغبة في

التعبير عنه إما بصورة عفوية، وإما بعد التفكير فيه بوعي، وإما عن طريق إبرازه في تساؤلات خطابية أو حوارية، ولا سيما إذا تم التسليم بأن «كل مركز يرتبط بسلطة يستمد منها قوته ويأخذ من سلامتها المنهجية ومصدرها المكين دواعي الإلتباع والخضوع، بل يسعى إلى بلورتها والخروج بها إلى العالم تعيينا لمواقفه الخاصة المندرجة تحت رؤية المركز، فيتخذ منها رؤيته، ويلتزم بحدودها وقضاياها واهتماماتها، ويصبح داعيا إليها ومدافعا عنها، وجاعلا منها نموذجا ساميا ينبغي أن يتبع ويشيع، وتصير كل النماذج الأخرى إلى الهامش لعدم مقدرتها على الاستجابة لمطالب الحال»².

وفي ثانيا هذا التوجه يظهر لنا بأن المركز له وجوده السلطوي على مستوى الإبداع وإنتاج الخطابات، فهو يوحي بفعل السيادة والسلطان بدل الاهتزاز والاضطراب(الهامش)، بل و تتعدد أصواته المعبرة عن القدرة على إتيان الفعل، والتوجه المحكم، والعلو والارتفاع، محدثة فيما بينها علاقات أقل ما يقال عنها أنها موحدة تجتمع في حقل إيداعي دلالي واحد، وتنتسب من خلالها أوصاف التمركز التي تبسط سلطانها الواسع الدال على ايجابية الوجود المنسجم مع نغمت معطاء تصون ذاك الوجود السلطوي(المركز) .

واستجابة لهذا التصور نشير إلى أن أدب المركز « ذلك النوع من الأدب الذي يخدم الطبقة العليا في المجتمع لذلك فهو دائما محتفى به و محاطا بالاهتمام الحضور لأنه النموذج المكتمل الذي يحتذى به لا لكونه بلغ الذروة في كمال التعبير، ولكنه لكونه موافقا للسلطة ولمخططاتها، وهو بمثابة وسيلة إشهار ودعاية له لأنه يشيد بإنجازاتها ولو كانت فاشلة»³.

وبناء على هذا التصور لا يفوتنا أن ننبه على أن أدب المركز يتبوأ مركز الصدارة و ينطوي على سلطة الكتابة التي تستجيب لمواضع القوة المحكومة بعدة زوايا: التاريخية، الاجتماعية، السياسية، الثقافية، الدينية، الجمالية... وغيرها، فيكتسب ملامح المركزية في صياغة المقومات الشكلية عبر استخدام حالة من المركزية الشمولية على كل الأصعدة(الشكل، الدلالة، الموضوع، الضوابط، الهدف...) وفق

سلسلة معرفية محورية تتجسد في النتاج الأدبي، وقد أطلق عليه مصطلح الأدب المؤسساتي أو أدب السلطة، وفي هذا الصدد يقول "عبد الله الغدامي" منطلقاً من كتاب (البيان والتبيين للجاحظ): «إن هذا الكتاب يمثل نموذجاً لتجاوز نسقين ثقافيين يتجاوزان في حال الصراع المكبوت بين المتن والهامش، بين الثقافة المؤسسانية المهمة والثقافة الشعبية المقموعة، ومن ثم فإن المؤلف يتوسل بالاستطراد لكي يتمكن من العبث بالنسق دون ملاحظة الرقيب الثقافي المؤسساتي»⁴

معنى ذلك أن أدب المركز ما كانت له عناية السلطة غير الثقافة الشعبية المقموعة، تكون له الشهرة و المكانة الرفيعة .

هذا بالنسبة لأدب المركز؛ وإذا ما ولينا وجوهنا شطر الحديث عن أدب الهامش وجدناه ينطلق من فكرة التهميش التي نجدها متجذرة في مختلف الحضارات عبر سياقها التاريخي، حيث تجلت لنا صور القمع والاستبداد، وقد مثلت فترة التسعينات «الانطلاقة الحقيقية للاهتمام بالتهميش والمهمشين في الأدب بصفة عامة، فمصطلح كتابة الهامش والمهمشين طرح بشكل لافت في التسعينات، ورغم شيوع المصطلح في عدد من المقالات والدراسات الأدبية المتخصصة إلا أنه لم يطرح في دراسة معمقة سوى في دراسة الدكتور مجدي توفيق التي طرح فيها الهامش الاجتماعي، وعنوانه "أدب المهمشين" وأطلق عليهم "المهمشون الجدد"»⁵.

وفي الحقيقة نجد أدب الهامش كمصطلح له دوائر دلالية مختلفة من الصعب ضبطها ضبطاً دقيقاً، كونها تشتمل على جملة من المعطيات الموقفية؛ حيث تجمع أحياناً بين متناقضات: «بين المنحرف والمتشرد من الناحية القانونية، وبين المجنون والمدمن من الناحية الصحية، وبين الأمي والمهاجر من الناحية الثقافية، وبين الفقير جدا و العاقل من الناحية الاجتماعية والاقتصادية»⁶.

فأدب الهامش هنا له موتيقات دلالية تنعكس في العديد من الجوانب القانونية والصحية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، إنها جوانب تعطي

صورة ما يتضمنه من أفكار تظهر نماذج من أعمال الأدباء التي تفتح أبواب التصوير الخارج عن المركز، والمحتضن لدلالة الرفض والمعارضة، وتجاوز المركز عن طريق كسر قيود السلطة و الهيمنة ، وقد عرفه "حسن بحراوي" بأنه « كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية، أو أكاديمية، وهو بذلك يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان، بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء، وقد تسلط عليه الرقابة والمنع، إذا ما بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبه عليها »⁷، إذ نستخدم هذا التحديد المفهوماتي في تصور خصوصية أدب الهامش يمكن أن نبين بأن هذا الأدب يحمل جملة من التسميات منها: الأدب الدوني، الأدب السوقي، والآداب الهامشية⁸، كما أنه له مستوى فكري معين بغض النظر الآليات العبيرية المستخدمة، أو الصور المتعددة... كل هذا أقل درجة من الآداب المركزية، فمكانة الأولى غير مكانة الثانية انطلاقا من المعايير اللغوية والجمالية والدلالية و النقدية بل حتى المواضيع المعالجة.

والحالة هذه تجعلنا نشير إلى أن أدب الهامش «يطلق على كل أدب منبذ و متهم ومتمرد ومتجاوز لسلطة المركز، وقد شاع تعبير أدب الهامش / المهمشين في السنوات الأخيرة شيوعا واسعا، لذلك انتشرت فكرة التهميش منطلقا من ديناميكية التخلي والنبد، وينبغي الإقرار بصعوبة تحديد مفهوم جامع "لأدب الهامش" لتعدد جوانب هذا الهامش (الهامش الاجتماعي، والهامش السياسي، والهامش الثقافي والهامش الديني، والهامش الإيديولوجي) إلا أنه يمكن إيراد عديد التعريفات، فهو في أبسط معانيه الأدب المتجاوز للمألوف و المتمرد على التقاليد الفنية السائدة »⁹.

ولا مناص إذن بالاعتراف بأن مصطلح أدب الهامش يحمل مفهوما زئبقيا يشتمل على كل ما هو مقصي أو مرفوض، أو غير مرغوب فيه، إنه الأدب المتحرر من القيود، الخارج عن النسق المعروف... الخ فكرا وإبداعا، إما من حيث

هو كيان إبداعي، أو من حيث منطقته الخاص، فحدث القمع والنبذ والرفض... وغيرها توحى بصفة النقص والدونية، فتكون لحظة الكشف على هذا النمط من الأدب- الهامش- تمهيدا للتحويلات الدلالية غير المألوفة، التي يحتضنها نسيج العمل بأكمله مشكلا جدارية التجاوز.

ثانيا: أدب المركز والهامش من التشييدات النظرية إلى الفعاليات الاستبصارية:

من الجدير بالذكر أن كلا من أدب المركز والهامش له حلبته ومشاهده، حيث تتجمع فيها كيفيات الوجود والتعبير التي تطبعها من كل الوجوه، فيتوزع في صور متباينة، وحركة مستمرة فالمركزي له دائرة مع وجهة ومركز، أما الهامشي- في تصورها - فله دائرته بوجهة ولكن بلا مركز، وفي كلا الحالتين لا يمكن للمركز أن يعيش دون هامش ولا يمكن أن يحيى الهامش دون مركز، وهكذا تزودج حيثيات وجودهما وتتداخل وتتشاكل في كنف التجادل/الصراع بكل ايجابياته وسلبياته، فكما توافق المصطلحان(المركز) (الهامش) مع مدلوليهما تكاملا لتعطيا صورة دلالية لهذا النوع من الأدب من حيث كان المصطلح الأول دالا على السلطة والهيمنة والمرتبة العليا، والمصطلح الثاني دالا على التمرد والرفض والخروج عن المألوف.

وفي ظل هذا المنحى ننوه على أن أدب المركز أدب يستجيب للسلطة وقراراتها ومخططاتها وسياساتها لذا يحاط بالرعاية والاهتمام وينال الرفعة والدرجات العليا من قبل أصحاب السلطة، أما أدب الهامش أدب الرفض والمعارضة فيهمش لتمرده على السلطة أو معالجته لمواضيع ذات صبغة جدلية، حيث في الغالب ينتظر أصحابه إلى الحديث عن المسكوت عنه، وعن القضايا المثيرة للنقاش والجدل، ومن هنا تكون العلاقة بينهما علاقة تلازم وجدل، فهو «لا يعرف التلون، ولا يرغب في انتهاز الفرص، ولا يمالئ الأقوياء، بل يعين على رفع الظلم عن المظلومين ويكرس نفسه لخدمة قضايا الإنسان من حيث هو إنسان، ويسعى

لمساعدة المحرومين والضعفاء»¹⁰، وعليه يكون التعامل معه أقل درجة مما يتعامل به مع الأدب الآخر (المركز)، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه «تسلط عليه الرقابة والمنع إذا بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبه عليها، كونه يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان، بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء»¹¹.

ومن هنا يصبح أدب الهامش بمثابة المتمرد على واقع الهيمنة والاستلاب، له قلبه الفكري الثقافي التمردى المنفتح على كل ما يوحي بالتححرر والتمرد، التي تتصل بصور متناسقة مصورة لكيفيات الوجود والتعبير، وتمثلت في: «صورة ذاتية، صورة موضوعية، صورة جمالية، تتعلق الصورة الذاتية بذات الكاتب المهمشة، وتتعلق الصورة الموضوعية بالموضوعات المقصاة عن الكتابة، وتتعلق الصورة الجمالية بعلاقات الشكل و النوع و التقاليد في إطار الثقافة بوجه عام»¹².

وقد يوحي ذلك إلى أن هذه الصور بمثابة الفاعل الدلالي الحاضر في عملية النسيج الخطابي؛ حيث نجد:

- الصورة الذاتية (سواء أكانت ذات المبدع، أو ذات الإبداع في حد ذاته، أو ذات المتفاعل مع هذا الإبداع): كلها تكون معرضة للتهميش، والوقوع تحت وطأة التسلط والهيمنة.

- الصورة الموضوعية: أي المواضيع التي يمنع على الكاتب المساس بها، أو الحديث عنها بصورة مطلقة كتلك التي تأخذ شرعيتها من السلطة أو الدين... الخ الصورة الجمالية: التي تظهر على الإبداع بعد كسر قيود الكتابة التقليدية المعروفة، وهو في حد ذاته تمرد.

والملاحظ أن هذه الصور تنمو وفق نوع من التضافر المنظم الذي يكفل لها فاعليتها وتستمد منها كيانها من ارتباط علاقاتها مع بعضها البعض، ومدى حيويتها في نسيج التصورات التي شكلت فضاء الكتابة / الإبداع.

وعلى الرغم من أن كلا منهما يحاول شق طريقه بمفرده، إلا أنهما تتصارعان - وفق تصورنا- في ذات واحدة إنها ذات الخطاب ونسيج التفاعل، انطلاقاً من أنساق مضمرة في الوجود الخطابي المحمل بالثقافات المتباينة، ذات المركزية التعبيرية غير المنفصلة عن الفضاءات الهامشية، ومن ثم باتت مساحة الحوار غير منتهية بينهما (المركز/ الهامش)، على اعتبار أن ذات الخطاب ما هي إلى كلية جامعة لأطراف هذه الثنائية المكونة بدورها للكينونة الذاتية للنسيج التفاعلي الذي يبدأ من علاقة المركز بالمركز، و علاقة الهامش بالهامش، وصولاً إلى علاقة المركز بالهامش وكيفية التعايش بينهما داخل مؤسسة دلالية متكئة على ثلاث دعائم: المركز، الهامش، النسيج التفاعلي، كل هذا في نطاق هوية كل من تلك الدعائم التي تدخل تحت بناء وجودي جوهره الكينونة الجامعة لها، من واقع كون المركز لا يمكنه ضمان بقائه في النسيج التفاعلي دون الهامش.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأن العلاقة بينهما شبيهة جداً بعلاقة «اللون بالظل، والكلام بالصمت، ففي العلاقتين معا تلازم إشكالي، فلا بزوغ للون بغياب الظلال، كما أنه لا أثر لكلام بلا فجوة صمت (...)» فإن في اقتران الآخرين بالظل والصمت إعلان بارتباطهم الدائم بعوالم الهامشي والغائب والمجرد، وانصرافهم للمثول باعتبارهم مقابلاً ضعيفاً يكرس قوة الأصل و يسهم في سطوته وإشعاعه»¹³. فلا وجود للظل دون الجسد أو الهيكل (المجسم)، ولا وجود للكلام أو لأثره دون فجوة صمت؛ بل هناك استراتيجيات أو تأثيرات متنوعة تتباين من موضع إلى آخر على أساس المرجع المستند إما على معلم التعايش والتلازم و التكامل، وإما على معلم الصراع و الجدال و المنافسة، ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال الآتي:

أيهما أسبق المركز أم الهامش؟ ثم هل المركز شرط لوجود الهامش أم العكس؟ أيهما حامل للآخر؟ هناك صعوبة في الإجابة عن هذه الأسئلة كونها تتصل بوسط حيوي

له قوانينه المتميزة، وربما العلاقة الجدلية التي تحمل في طياتها الصراع القائم بين المتناقضات التي يحتويها النظام الكلي المستوجب لتواجدها وتطورها في كنفه، حيث لا يمكن حل هذا التناقض قصد إيجاد تواصلات جديدة تستوفي كل ما يتطلبه الوجود الفعلي لها في مجال ذاك النظام الكلي ومن ثم تظهر علاقات جدلية مستحدثة، ولعل هذا ما يظهر لنا ونحن إزاء الحديث عن ثنائية المركز والهامش؛ كون العلاقة بينهما - كما يبدو لنا- في حد ذاتها ذات سلطة، وذات فكر وتراتبات معرفية تدعم الكيان أو النظام ككل، إذ أن كلا الطرفين يقتضي وجود الآخر، وتناول أحدهما يستوجب تناول الآخر.

ويمكن أن نوضح ما ذهبنا إليه في الشكل التالي:

	السلطة و الهيمنة	الوسط الحيوي	الصراع بين المتناقضات	الوجود الفعلي	التموجات الإبداعية
المركز	وجود نشاط حدثي	وجود إمكانات التعايش	وجود التجربة + الانشغال	وجود الحماسة في بناء التكون	مدعمة /الرفعة في الدرجة
الهامش	وجود تدفق الشحنة الذاتية	وجود إمكانات التعايش	وجود الذات + الحدث	وجود نداء الذات المباشرة للوحدة المكثفة والسعي نحو تحقيق الهدف	الرفض/ التمرد

(شكل يبين وجود المركز والهامش في حقل الكيان الإبداعي)

ومن المهم هنا أن يكون سياق أطراف تلك الثنائية (المركز/ الهامش) تحمل فكرا وتشكيلا من نوع خاص، يحركان جميع إمكانات استمرار التعايش، خصوصا بعد التسليم بعدم قدرة وجود المركز دون مكاسب الهامش، وعدم بناء الهامش لصور دون تعايشه مع المركز.

ومن الواضح أن أدب الهامش له مشروعيته الخاصة التي تستوجب ذاكرة قرائية وإيديولوجية معينة تجعل من القنوات جزءا لا يتجزأ منها، تتحاور مع خطابات عديدة تتميز بمساراتها الملموسة لذا فإن كل موضوع من مواضيعه إنما يندرج ضمن نسق التقويمات المتصلة بالممارسة الإبداعية ككل، ومن بين هذه المواضيع: (أدب الطفل/ الأدب الشعبي، الرواية البوليسية، أدب الخيال العلمي...الخ)، ولا بأس أن نركز في حديثنا هنا عن أحد تلك المواضيع فليكن أدب الطفل:

ثالثا: أدب الطفل من تأسيس المشروعية الخطابية إلى تهميش الامتداد الوجودي: إذا عندنا إلى موضوع أدب الطفل لاحظنا أنه مشهد إبداعي ثقافي موجه للطفل، فهو يفتح المجال أمامه « لتحقيق الثقة بالنفس وروح المخاطرة في مواصلة البحث والكشف، وحب الاستطلاع الداخلى إلى الانجاز الذي يدفع إلى المخاطرة العلمية المحسوبة من أجل الاكتشاف والتحرر من الأساليب المعتادة للتفكير والميل إلى البحث في الاتجاهات الجديدة »¹⁴.

فملاح أدب الطفل توحى بأنه نمط من الأدب يلبي حاجات نفسية لذاك الطفل من مثل إشعارهم بالطمأنينة والأمان، وزرع الثقة في أنفسهم عن طريق وضعهم - تجاوزا- مكان أبطال ما يقدم لهم من حكايات وقصص و مسرحيات...الخ، ومن ثم تعليمهم الوقوف في وجه العقبات التي تواجههم، وكذا التصدي للصعاب والخيبات التي تفاجئهم بين الحين والآخر، هذا دون تجاهل السعي نحو غرس الراحة في نفوسهم قصد إعطائهم الثقة في التعبير عن كل ما يرغبون فيه

دون خوف ولا تردد، علاوة على تحريرهم من الواقع وجعلهم يركبون سفينة الخيال ويبحروا مع أفكارهم ثم العودة إلى الواقع بعد اكتسابهم لحقائق جديدة وتنمية ذوقهم ولغتهم وأسلوبهم التفكير وغير ذلك.

ولعله من المفيد لنا الإشارة إلى أن أدب الطفل «لم يتبلور في أدبنا العربي الحديث إلا في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، على الرغم من الإرهاصات الأولى لهذا اللون الأدبي، التي تعود إلى بداية القرن الحالي، إذ إن أدب الأطفال كفن متميز لم يجد طريقه إلى الأدب العربي قبل أحمد شوقي في الشعر العربي وقبل كامل كيلاني في القصة، ثم ظهرت مجلات الطفل المتخصصة، وتخصص بعض الأدباء في الكتابة للطفل»¹⁵.

والجدير بالذكر - ونحن في هذا المقام - أن أدب الطفل يتميز بفاعليته، ولا سيما إذا تم التسليم بأنه عمل إبداعي يتميز بطبيعة خاصة، ومن الصعب وضع تحديد مفهوماتي دقيق له، حيث كل متفاعل معه جعل له مفهوما معينا - ولا بأس أن نأخذ بعض التحديدات - وهذا "نجيب الكيلاني" ذكر أن لأدب الأطفال مفهوميين، أحدهما يحمل مفهوما عاما جعله يدل على «الإنتاج العقلي المدون في كتب موجهة لهؤلاء الأطفال في شتى فروع المعرفة»¹⁶، في حين جعل المفهوم الثاني مفهوما خاصا وصله «بالكلام الجيد الذي يحدث في نفوس هؤلاء الأطفال متعة فنية، سواء أكان شعرا أم نثرا، وسواء أكان شفويا بالكلام أم تحريريا بالكتابة»¹⁷.

كما نجد "سمير عبد الوهاب أحمد" يحدد له دلالة عامة؛ حيث ذكر بأن أدب الأطفال «يشمل كل ما يقدم للأطفال في طفولتهم من مواد تجسد المعاني والأفكار والمشاعر، لذا يمكن أن يتجاوز في حدود هذا المعنى - ما يقدم إليهم مما يسمى بالقراءات الحرة، ويدخل ضمن هذه الحدود الأدب الذي تقدمه الروضة والمدرسة، وما

يقدم إليهم- شفاهة - في نطاق الأسرة والحضانة ما دامت مقومات الأدب بادية فيه»¹⁸.

ومما يبدو لنا أن هذا المفهوم يجعل من أدب الطفل نسيجاً إبداعياً منظوياً على مجموعة من الأفكار والصور الموجهة له قصد تعليمه جملة من السلوكات والمفردات والتفسيرات وغيرها بشكل فني محبب إلى النفس، تستخدم الصور لشرح المرغوب فيه، مع «تقريب المعنى الذهني والوجداني وهو ما ينبغي أن تكون عليه الكتب والمجموعات أو المطبوعات الموجهة للأطفال بعامة حيث تقوم عناصر اللون والصورة والكلمة بتأدية دورها العظيم والمؤثر»¹⁹.

وفي ضوء ما سبق ذكره يقدم لنا "أحمد زلط" تحديداً لهذا النوع من الكتابة قائلاً: «أدب الأطفال هو إبداع مؤسس على خلق فني يعتمد بنيانه اللغوي على ألفاظ سهلة ميسرة فصيحة تتفق والقاموس اللغوي للطفل بالإضافة إلى خيال شفاف غير مركب، ومضمون هادف متنوع، وتوظيف كل تلك العناصر، بحيث تتفق أساليب مخاطبتها وتوجيهاتها لخدمة عقلية الطفل وإدراكه»²⁰.

فالكتابة للطفل ليست بالأمر السهل وإنما تحتاج إلى مجموعة من الآليات التي يتوجب على مبدعه أن يتحلى بها بعد الموهبة كالاطلاع الواسع على كل ما يخص الطفل وعالمه من فكر وثقافة وسلوك، اكتساب مهارة عميقة في فهم نفسية الطفل وما يحبه أو يكرهه، وكذا الوسط الذي يعيش فيه... الخ، دون إغفال استخدام اللغة البسيطة القريبة من تفكيره، وتسطير أهداف توجيهية، ومسايرة ذوق الطفل ومستوى إدراكه ونضجه، وكأنا بكاتب هذا النوع من الإبداع يقدم جرعات تطعيمية للطفل أو «فيتامينات للفكر، يحتاج عقل الطفل وخياله منها إلى أنواع مختلفة، كل نوع يعني جانباً من تفكيره، وشعوره، ويقوي نواحي الخيال فيه، ومن ثم يجب ألا

يقصر الذين يكتبون كتاباتهم على مجال واحد منه أو نوع بذاته ولا على أدب أمة واحدة»²¹.

فالطفل دوماً يستقبل ما يرسل إليه من إبداعات بمثابة فيتامينات تغذي عقله وفكره وإدراكه وخياله وأحاسيسه، سواء أكان ذلك عبارة عن قصة أم مسرحية أم أنشودة أم أغنية.. الخ، تسهم في تكوين شخصية الطفل وصقلها بمجموعة من القيم، حيث يتناغم مع كل ما تحمله تلك الأجناس التي تدخل تحت كنف أدب الطفل فتتمو ملكته التذوقية؛ حيث نشأة الطفل مع الأدب تجعله يكتسب فكراً مميزاً وذوقاً خاصاً وخيالاً واسعاً، مع الإحساس بالجمال الذوقي والروحي، وبخاصة إذا تم الإقرار بأنه أدب يجمع بين الحاضر والمستقبل فهو «ذلك الجنس المتجدد الذي نشأ ليخاطب عقلية الصغار، ولإدراك شريحة عمرية لها حجمها العددي الهائل في صفوف أي المجتمع (...)» فهو أدب مرحلة متدرجة من حياة الكائن البشري، لها خصوصيتها وعقلانياتها، وإدراكها وأساليب تنقيفها، أي في ضوء مفهوم التربية المتكاملة التي تستعين بمجالي الشعر والنثر، بما يحقق المتعة والفائدة لهذا اللون الأدبي الموجه للأطفال، ولذلك (...) فمصطلح أدب الأطفال يشير إلى ذلك الأدب الموروث، وأدب الحاضر، وأدب المستقبل، لأنه أدب موجه إلى مرحلة عمرية طويلة من عمر الإنسان»²².

لذلك يتراءى لنا بأن أدب الطفل يكسبه مناعة قوية تواجه الروافد الخارجية عن قيمه ومبادئه، كما أن هذا الأدب يؤدي دوراً هاماً في بناء الصرح المعرفي عند الطفل في مرحلة من مراحل نموه وتنشئته وفق رؤية معرفية تربوية، تسهم بدورها في تشكيل مدركاته ومن ثم الربط بين الما كان والكيونة الحاضرة قصد وضع اللبنة الأساسية للكيونة المستقبلية كونه بكل بساطة وسيلة من وسائل التعليم والتربية. وحتى يترك أثره على نفسية الطفل يتوجب عليه التحلي بصفات عديدة نذكر منها:

أن يراعى فيه سن الطفل وإدراكه.

أن تراعى فيه المواضيع المناسبة للمرحلة العمرية للطفل و تجسد اهتماماته.
أن يتضمن الصور الإبداعية أو المرسومة حتى تدغدغ إحساس وخيال الطفل فيطلق
عنايه للاستمتاع بما يقدم له من كتابات، لما تعكسه من آثار على نفسيته.

أن يتناول أفكارا واضحة وبسيطة بأساليب تناسب عمر الطفل.
أن تكون لغته شاعرية تتناسب و القاموس اللغوي الخاص بالطفل كي يستوعبها دون
عناء.

السعي دوما نحو تحقيق الألفة والتقارب بين الطفل وما يكتب له.
وانطلاقا مما ذكر حول أدب الطفل والتحديات المفاهيمية له تتبادر إلى أذهاننا
التساؤلات التالية:

رابعا: هل فعلا أدب الطفل أدب مهمش؟ وعلى أي أساس كان التهميش؟ هل انطلقا
من التمثلات المعرفية؟ أم الوجود التشكيلي للكتابة في حد ذاتها؟ أم أفاعيل الدهر؟
وماذا عن كتابه؟

إنها تساؤلات تستوقف أي متفاعل مع هذا النوع من الكتابة أو مشتغل عليها،
على الرغم من أنه موجه إلى شريحة معينة، كما يسعى أصحابه إلى بناء شخصية
سوية على كل الأصعدة، مع محاولتهم رسم ملامح شخصيات مستقبلية تتحمل
الصعاب والخيبات، وترتقي بسلوكات فاضلة ورفيعة، وإنماء اللغة والفكر عند تلك
الشريحة غير أنه لازال يعاني من التهميش هو وكتابه، مع العلم أنه في الآونة
الأخيرة بدأت تتسع بوتقة الاهتمام به .

ومع وجود هذا التوسع إلا أن هنالك تهميشا له؛ كون العديد من الأطراف في
المجتمع أو في المؤسسات القريبة من الطفل غير مستوعبة لأهمية هذا الأدب في
المساحة المحيطة بالطفل، بل حتى النظرة الموجهة إليه نظرة متدنية وغير قريبة من

ذاك الكائن الحساس، وقد يكتب فيه من ليس بالمتخصص ومن ثم تقدم معطيات معرفية لا تناسب سنهم، وأحيانا يكون الكاتب غير مدرك لحقيقة الطفل ونموه العقلي /الإدراكي، والنفسي/البناء الداخلي، والاجتماعي/الوسط الذي يعيش فيه، والمدرجات الواقعية /أو الإبحار الخيالي.

ومن هنا كانت أولى الخطوات لتهميش هذا النوع من الكتابة مع تهमيش كتابه، فعلى الرغم من أن الكتابة فيه ممتدة بلا حدود، وغاياته لا تنقضي إلا أن وجود التكنولوجيا الحديثة ووسائل الاتصال العديدة (رسوم متحركة مترجمة وغير مترجمة، أفلام كرتونية فعلت فعلتها، كانت غايتها استهداف عقل ومدرجات الطفل، بل حتى وجدانه، فشكلت في تصورنا مظهرا من مظاهر التهميش الذي نرجع أسبابه إلى:

- انعدام المحفز والتشجيع لكاتب أدب الطفل مما يجعله يشعر بالإحباط واللا فائدة من الجهد المبذول .

- قلة الجمهور المستقبل للعمل الإبداعي الموجه للطفل إذ غالبا ما يوجه العمل إلى الطفل في قاعة العرض فيكون أغلب هذا الجمهور من فئة الكبار .

- تهميش وتجاهل وعدم تجاوب مع الحاجيات الثقافية والأدبية التي تههم الطفل مع تجاهل كاتبه.

- غياب الرعاية الحقيقية للطفل حيث توجه هذا الأخير نحو التكنولوجيا بكل وسائلها- إما نتيجة للغياب الكلي للعائلة أو المؤسسة القريبة منه وإما للامبالاة من الطرفين - والتي وُجِهَتْ بدورها خصيصا لتستحوذ على عقله وعواطفه بل حتى على خياله إلى درجة أنها تمثل في الغالب السيطرة على مدركاته وهذا أمر خطير (مثلا الألعاب الالكترونية التي تثبت على الشبكة العنكبوتية فيستقبلها الطفل إما على الحاسوب أو على الهواتف النقالة، الإشهارات الالكترونية الجريئة التي تمر بين

الحين والآخر في أثناء مشاهدة الطفل لتلك الألعاب أو الرسوم المتحركة أو الأفلام والتي تمس القيمة الاجتماعية أو الأخلاقية أو الدينية... الخ)، وهي بكل بساطة تهديد لمستقبل الطفل، وزعزعة لبناء شخصيته السوية.

- غياب الوعي الجمعي بفائدة أدب الطفل وإعطائه المكانة التي يستحقها والوقوع في فخ سلبيات التكنولوجيا على فكر الطفل ومدرسته.

- الإبداعات الموجهة إلى الطفل تفتقر إلى مواكبة نقدية دقيقة و متخصصة بأدب الطفل حتى تحدد الأفضلية له على كل الأصعدة .

- عدم منهجية الكتابة للطفل أي غياب القواعد والمعايير والأسس الفنية الواضحة التي تنظم ميكانيزمات الكتابة في أدب الطفل.

- الأدب الموجه للطفل غير مدعم من المؤسسات الحكومية .

- الإخراج الفني لهذا الأدب له أثره على الطفل القارئ إذ تقدم له بحلة رديئة ونوعية ورق رخيصة وصور أقل ما يقال عنها أنها تنفر الطفل منها بدلا من جذبه.

- الطفل أصبح مرتبطا بعوالم أخرى (الالكترونيات والصفحات الرقمية) غير الاتصال بالصفحات الورقية، كون الأولى من التقنيات الحديثة التي تثير المتعة والإثارة ليس عند الطفل فحسب؛ بل حتى عند الكبار.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة نشير إلى أن أدب الطفل يبقى تجربة إبداعية ذات خصوصية متفردة، عملت عدة عوامل على تهميشه منها ما يتعلق بالتمثلات المعرفية، ومنها ما هو متصل بالوجود التشكيلي للكتابة في حد ذاتها، إنه يحتاج لتكريس الجهود لبناء جيل سوي مثقف يتمتع بالأخلاق الحميدة و المثل العليا، ولا بد من إخراجه من خندق التهميش، ورسم كينونته المركزية، وتأسيس ما هم جوهرى فيه، وإدخاله في ديمومة متصلة متماسكة تعيد له مكانته.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - سلمى أوكسل، سكبنة قدور: جدلية المركز والهامش في رواية العمامة و الطربوش لصبرينة بن عزيزة، مجلة (لغة - كلام) الصادرة عن مخبر اللغة و التواصل / جامعة غليزان، الجزائر، المجلد 07 ، العدد 02، مارس 2021م، ص: 372.
- ² - أحمد مداس: الهامش و المركز في الثقافة العربية من التلازم إلى تبادل الأدوار (ظاهرة التحول)، سلسلة ندوات المخبر 02 ، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن تبرماسين، في أدب الهامش ، مجموعة من المؤلفين، منشورات وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة ومنهاجها، جامعة بسكرة، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الآداب واللغة العربية، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، 1495هـ- 2012م، ص: 95.
- ³ - عبد الرحمان تبرماسين، صورية جيجخ، إشكالية المركز والهامش في الأدب، مجلة المخبر، العدد 10، 2014 م، جامعة بسكرة ، ص: 30.
- ⁴ - عبد الله الغذامي: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005 م ، ص: 225.
- ⁵ - هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسيو ثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، والقاهرة ، ط 01، 2015م، ص: 10.
- ⁶ - بركات محمد أرزقي: الثقافة الهامشية وأثرها على الانحراف - دراسة ميدانية نفسية اجتماعية- مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1988-1989 م ص: 27.
- ⁷ - حسن بحراوي: أدب شكري من الهامشية إلى المركزية ، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، العدد 2002، 18م على الموقع Saidbengrad.free.fr
- ⁸ - ينظر: الباح دليلة، عبد الرحمن تبرماسين، المركز والهامش مفهومه، أنواعه جذوره، مجلة قراءات، الصادرة عن مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومنهاجها، جامعة بسكرة ، ص: 306.
- ⁹ - سليمة خليل، مشقوق هنية: الأدب النسوي بين المركزية والتمهيش، أرشيف مجلة مقاليد، العدد 2، ديسمبر 2011م، جامعة محمد خيضر بسكرة ص: 113.

- ¹⁰ - صلاح فضل وآخرون: أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، تح: خالد الجبر، دار الفارس، عمان، الأردن، ط 1، 2010م، ص: 83.
- ¹¹ - عبد الرحمن تبرماسين وآخرون، (2012م)، أدب الهامش، مطبعة علي بن زيد للفنون المطبعية. بسكرة، الجزائر. ص: 12.
- ¹² - صلاح فضل وآخرون: أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، ص: 80.
- ¹³ - شرف الدين ماجدولين: الفتنة والآخر، أنساق الغيرية في السرد العربي، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 01، 2012م، ص: 46.
- ¹⁴ - حسن شحاتة: أدب الطفل العربي (دراسات وبحوث) القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، (د ط) ، 1991 م ، ص: 12.
- ¹⁵ - عبد الفتاح إسماعيل: أدب الأطفال في العالم المعاصر، رؤية نقدية تحليلية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، (د ط)، 1999م، ص: 22.
- ¹⁶ - الكيلاني نجيب: أدب الأطفال في ضوء الإسلام، مؤسسة الرسالة، القاهرة، (د ط)، 1986م، ص: 271.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص: 273.
- ¹⁸ - سمير عبد الوهاب أحمد، أدب الأطفال، قراءات نظرية ونماذج تطبيقية، دار المسيرة للنشر والتوزيع و الطباعة، عمان، الأردن، ط 01، 1426هـ-2006م، ص: 48.
- ¹⁹ - أحمد فضل شبلول، جماليات النص الشعري للأطفال، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1996م، ص: 12.
- ²⁰ - أحمد زلط، أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط02، 1997م، ص: 25.
- ²¹ - علي الحديدي، في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 02، 1988م، ص: 03.
- ²² - إسماعيل عبد الفتاح، أدب الأطفال في العالم المعاصر، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط 01، رمضان 1420م، يناير 2000م ، ص: 23، 22.